المحاضرة 7:

طاهر الحداد وجهـــوده الفكريـــة

الشيخ طاهر حداد مولود بين سنتي (1899- 1935) بتونس العاصمة ، بدأ تعليمه في كتاتيب قرآنية تقليدية لست سنوات، ثم التحق بجامع الزيتونة بين 1911-1920، حيث حصل على شهادة التطويع في الفقه الإسلامي، ورفض الانخراط كمأذون شرعي رغم الأمر الرسمي، مفضلاً عملاً متواضعاً كماسك دفاتر في سوق العطارين ثم كاتباً في الجمعية الخيرية، في 1921 التحق بمدرسة الحقوق العليا التونسية، وبدأ الكتابة في جرائد مثل "الأمة"، "مرشد الأمة"، و"أفريقيا"، وكان صديقاً لأبي القاسم الشابي ومحمد علي الحامي، بعد مرض قصير، تاركاً إرثاً فكرياً هائلاً رغم حياته القصيرة.

أعماله

- التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة
- العمّال التونسيّون وظهور الحركة النقابيّة
- امرأتنا في الشّريعة والمجتمع
- ديوان طاهر الحداد

نشاطه النضالي

في عام 1920 انخرط طاهر حداد في العمل السياسي وبالضبط في حزب الدستور ، كان هدف الحزب تحرير تونس من الوصاية الفرنسية ،وشن حملة ضد مشروع قانون تجنيس التونسية وهو قانون كان هدفه إغراء النخبة بالحصول على الجنسية الفرنسية ،حيث إلتمت مجموعة كبيرة من الشخصيات التونسية ،والتي حملت معها مشروع دستور تونسي ،كان أغلبهم من خرجي المدارس الفرنسية ومتشبعين بالفكر العلماني ،وقد كلف الحداد بدعوة المواطنين إلى الانخراط في الحزب ، ولكن سرعان ما نخرت الصراعات الداخلية داخل الحزب مما اضطر زعيمه عبد العزيز الثعالبي إلى الاستقالة ،ولم يلبث الحداد وبالضبط سنة 1923 بالاستقالة هو الآخر والبحث عن سبل جديدة من النضال .

كان للكثير من الأحداث التي وقعت في فترات متتالية كبير الأثر في نمو روح وطنية مفعمة وهو في بداية حياته ،فضرب الحصار على مدينة تونس وكثير من القرى والمداشر المجاورة لها وكذا اعتقال قادة حركة الشباب التونسي أمثال "علي باش حانبه" و"عبد العزيز الثعالبي" ،وبعدها انتفاضة الفلاحين 1906 ،وأحداث التراموای 1912 ، ثم توجت في سنة 1915 بانتفاضة الجنوب التونسي المسلحة .

وأمام هذا أنغمس "طاهر الحداد" في النشاط السياسي والحقوقي ،ومحاربة سياسات الاستعمار الفرنسي لطمس الهوية التونسية والدفاع عن حقوق التونسيين ، هناك دراسات كثيرة تنزل فكر الرجل في إطار أيديولوجية محددة، فثمة باحثون يعتبرونه من رواد الإشتراكية في تونس باعتباره حلل البيئة التونسية حسب نظرة مستوحاة من المبادئ الماركسية[1] .

[1] أحمد خالد ، الطاهر حداد والبيئة التونسية في الثلث الأول من القرن العشرين، تونس، الدار التونسية للنشر ، 1967 ، ص 129

وقد كان لحداد رؤية تذهب إلى اعتبار الدين الإسلامي والجنسية التونسية عنصرين لا ينفصلان، وهي رؤية محافظة تقترب من نظرة محمد رشيد رضا وعدد من المفكرين المسلمين المحافظين الذين كانوا يعتبرون الدين عماد الجنسية، ويرون أن الخروج الإرادي من جنسية إسلامية هو خروج من الملة، بل " ردة وكفر "كما قال الحداد.

نشاطه الفكري

لم يكتفي الحداد بالجانب العمالي والنقابي فقط بل كان اهتمامه واسع بالجانب التربوي ، فقد كان كثير الإنتقاد لطرق التعليم بالزيتونة والتي كان يرى فيها أنها تقليدية ومتأخرة ،وقد كتب رسالة إلى الزيتونة بعنوان "التعليم الإسلامي وحركة الاصلاح في جامع الزيتونة" وهو طالب ينتقده فيها ،ولعل هذه الرسالة أوضحت مما لا يدعو مجال للشك الطريق التنويري والعقلاني الذي سلكه الحداد في شبابه ،حيث يدعو إلى بث الرّوح العلميّة واحترام حرية الفكر وتغير نمط التعليم الكلاسيكي المبني على ملأ الأدمغة بالحفظ والنّقْل ،معطيا أمثلة بشيخه ومعلمه "محمّد النّخلي" الذي كان يعتمد مبدأ الإجتهاد في البحث والتدريس " لا يلزم أن نتحدث عن تاريخ هذه الكلية وما أنجبت من علماء نافعين في عصر الدول العربية فذلك ما سطره التاريخ في صحفه، غير أنه مهما كانت تلك الأساليب التي تدرس بها مثمرة ثمرا طيبا في ذلك العصر فإنها اليوم بحكم الزمن وتطور الأحوال أصبحت قاصرة أن تبلغ بالإنسان درجة فهم الحياة المعاصرة أو أن تبلغه من وسائل العمل ما يكفيه للعيش" 2، رفض التقليد الأعمى وأكداً على الاجتهاد الاستقرائي الذي يستمد من الواقع الاجتماعي لا من التجريد الميتافيزيقي ،حيث اعتمد منهجاً فلسفياً يشبه "خلق المفاهيم" عند دولوز، حيث يستخرج من تناقضات العصر

[2] طاهر الحداد، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، تقديم وتحقيق محمد أنور بوسنينة ،الدار التونسية للنشر، 1981، ص 29

(كالاستعمار والتخلف) رؤى حديثة تجدد الشريعة دون قطيعة معها، مما يجعله "حداثة غير غربية" شمولية.

ويعتبر كتابه " التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة"، بمثابة دعوة إلى إصلاح منظومة التربوية لجامع الزيتونة والتي زاد من قوتها الإضراب الذي شنه الطلبة سنة 1910 يدعون فيه لإصلاح جامع الزيتونة وإدخال مواد جديدة وحديثة مثل الرياضيات والعلوم الطبيعية والكيمياء ،كما انتقد فيه الإصلاحات التي جاء بها الجامع والتي لا ترقى إلى مستوى التغيير والتجديد ،ومحاربة كل من يحاول التجديد ،لقد كتب العديد من المقالات في صحف مثل "الأمة" و"أفريقيا" تنتقد الزيتونة التقليدية، مطالبًا بتجديد التعليم الإسلامي ليصبح أداة تطور لا جمود، كما في كتابه "التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة"، حيث يدعو لدمج العلوم الحديثة مع الفقه. في مجال حقوق المرأة، رأى فيها شريكاً أساسياً للنهضة، مستنداً إلى تفسير قرآني يؤكد المساواة في الخلق والكرامة، وينتقد العادات الاجتماعية كـ"بدع" لا شريعة ،يقول في هذا "إلى اليوم يجب أن لا يتظاهر أحد بأفكار ينسبها إلى ذاته ليعارض بها أقوال العلماء السابقين، ومجرد توهم هذا المقدار على شخص يفضي إلى الإنكار عليه ورمي عقيدته بتهم الزيغ والاعتزال بالرأي "[3]

من بين المواضيع الأكثر إثارة للجدل عند طاهر الحداد هو موضوع حرية المرأة ، وكان اول مرة ينشر مواضيع حول هذا الموضوع سنة 1928 بجريدة "الصّواب" ،وكانت مواضيعها تدور حول تعليم و ترقية المرأة التّونسيّة ،يريد من خلال هذه الكتابات خلق تصور جديد لعملية الاصلاح الاجتماعي والتّربوي.

[3] لطاهر الحداد، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة ، مصدر سابق، ص 62

لقد شكلت قضية المرأة بالنسبة للحداد نقطة تحول في حياته ، فقد وصلت مطالبه في الجرأة حدود المطالب بنفس حقوق الرجل ، مما يضعه في مقدمة أول من كتب في حرية المرأة والمطالب بالمساواة مع الرجل ، فطاهر الحداد ترك إرثاً كتابياً غنياً يعكس رؤيته الإصلاحية الشاملة، حيث يجمع في كتبه بين التحليل الاجتماعي والفقهي لمواجهة تحديات عصره ،ولعل أهم كتبه هو:

" **امرأتنا في الشّريعة والمجتمع** " الذي تم اصداره سنة 1930 ،وقد اثار ضجة كبيرة ، كانت نتائجها وخيمة على طاهر الحداد منها الغاء جميع شهاداته العلمية ،ومن سوء حظه أنها تصادفت مع أزمة كبيرة وقع فيها ملك تونس أحمد الباي الثاني وقادته السياسيين وبعض رجال الدين باحتضانهم لمؤتمر الأفخارستي الذي نظمته الكنيسة الكاثوليكيّة في نفس سنة صدور الكتاب ،والذي لم يدركوا ما يحمله من ابعاد نصرانية الا بعد فوات الآوان ،فكان ما اثاره كتاب الحداد من ضجة فرصة سانحة لتحويل الأضواء وغضب الشعب نحوه ،وإبراز انفسهم أنهم حماة الدين والشريعة.

أن كتاب " امرأتنا في الشّريعة والمجتمع " كان بداية لجدل فقهيّ يدور حول الأحكام الواردة في القرآن بشأن المرأة، ولا سيّما في مسائل الشّهادة والقضاء والميراث والزّواج والطّلاق، لينتقل إلى جدل فكريّ يتعلّق بمناهج التّفكير في المسائل الدّينيّة، ثمّ إلى المفاهيم والتصورات العقلية التّي تحكم رؤية الأشياء وأساليب الوصول إلى المعرفة وطرق إنتاجها ،إلى أن وصل إلى مجال السياسة حيث بدأت تيارات سياسية تتفاعل مع أفكاره وتأييدها.

تضمن كتابه الدعوة لتحرر المرأة المسلمة مما زعم أنها قيود تكبلها داخل مجتمعاتها، والمطالبة بالطلاق المدني وألا يكون من حق الرجل فقط الذي قد يسيء استخدامه ولكن يرجع فيه إلى القضاء، كما عبر عن رفضه لتعدد الزوجات معتبرا أنه سنة سيئة ورثت من أيام الجاهلية، ودعا إلى ممارسة المرأة الألعاب الرياضية وأن تقبل

على هذه الألعاب وأن تسعى لمجاراة أختها الأوربية في تقوم به، انتهت هذه الأفكار إلى القانون الوضعي التونسي في مجلة الأحوال الشخصية الصادرة في 1957 حيث أقر بأهلية المرأة لتزويج نفسها مما يستحيل معه عضلها عن الزواج أو تزويجها دون رضاها.

ويشتمل كتاب "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" على قسمين رئيسين: أوّلهما تشريعي والاخر اجتماعي.

القسم الاجتماعي : يصف فيه الأسرة التونسية في أسلوب وصفي عن مظاهر و صور للأسر داخل البيوت لم تعد موجودة و انقرضت من الحياة العامة ، ويشير إلى بعض الممارسات السيئة أثرت في مستوى السعادة و الإستقرار داخل الأسر .

القسم التّشريعي : حمل إعادة النظر في بعض التشريعات مثل حقّ الشّهادة مع الرجل ،وحق ممارسة القضاء، وحرّية التصرّف المالي، والمساواة في الميراث ، وقيّد الحدّاد الزّواج بالفحص الطّبي قبل كتابة العقد تفاديا للأمراض التّناسلية وشدّد على منع التزويج دون سن الرشد ،و إباحة الاجهاض إذا خيف على حياة الأُم ،ورفض تعدّد الزّوجات حفاظا على وحدة الأسرة واستقرارها، وجعل القضاء فاصلا في قضايا الطلاق ،فكان كتابه بداية حقيقيا للأحوال الشخصيّة بتونس فيما بعد.

وأهم نقاط التي تطرق إليها الحداد في كتابه :

- رفض تعدد الزوجات .
- جعل القضاء المسؤول عن مسائل الطلاق
- المساواة بين الجنسين في التعليم
- حق المرأة في الانتخاب
- حق المرأة في الشغل والوظيفة العمومية
- اعتبار الحجاب تقيد للمرأة و اهانة لها .

هذا أهم ما تناوله الحداد في كتابه ، وهو الأمر الذي كان سببا في ثورة الرأي العام عليه و نبذه ورفض التعامل معه ،ولم تلقى أفكاره الكثير من التأييد إلا بعد اعتلاء بورقيبة سدة الحكم حيث بدأ بإعادة دفنه بالعاصمة ،واعادة نشر كتابه هذا ،اما عن افكاره ففي سنة 1981، صدر منشور وزاري يمنع ارتداء "الزي الطائفي" داخل الإدارات العمومية ، واعادة النظر في القوانين و التشريعات القضائية والأحوال المدنية في قضايا الأسرة والطلاق و أخذت تونس في رسم سياسة الإنفتاح على العالم الغربي وتبني العلمانية في أكمل صورها.

اختلف حوله الكثير من المفكرين بين مؤيد و بين معارض لأفكاره فنجد طه حسين بعد أن قرأ كتابه قال فيه " لقد سبق هذا الفتى قومه بقرنين " ، أما الباحث الفلسطيني فهمي جدعان الذي يتكلم عن أفكار الحداد في كتابه " أسس التقدم عند مفكري الإسلام"، بعد حديثه عن رجوع طاهر الحداد إلى الظروف المتغيرة كمبرر لتغيير بعض أحكام الشريعة: " هل الظروف المتغيرة التي تفرض – جدلاً – تغيير الأحكام هي ظروف الانحطاط الاجتماعي في الإسلام التي أصبحت لها قوة الإلزام، أم هي ظروف المدنية الغربية التي أصبح لسلطتها هي أيضاً، بسبب الغزو الخارجي أو الداخلي المقلد، الحق في تغيير الأحكام الشرعية؟ من الواضح أن كلتا الحالتين لا تسوّغ إخضاع الشريعة لما أخضعه لها الطاهر الحداد ".

إن تعرض الحداد لهذا الكم الهائل من العداء و الضغط جعل هذا الشّاب ينعزل و ينطوي على نفسه وهو الأمر الذي سبب له صدمة نفسية نجم عنها مرض قلبي أدّى إلى وفاته سنة 1935 ولمّا يتجاوز السّادسة والثلاثين من عمره.

قائمة المصادر والمراجع

- طاهر الحداد ، إمرأتنا في الشريعة و المجتمع ، تقديم محمد الحداد ، دار الكتاب المصري القاهرة ،2011 .
- طاهر الحداد، العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية، الدار التونسية للنشر، تونس ، الطبعة الثالثة ،1972
- طاهر الحداد، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، تقديم وتحقيق محمد أنور بوسنينة ،الدار التونسية للنشر، 1981
- أحمد خالد – الطاهر حداد والبيئة التونسية في الثلث الأول من القرن الع ، شرين، تونس، الدار التونسية للنشر ، 1967 ،
- فهمي جدعان ،أسس القدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ،دار الشروق ، الطبعة الثالثة ، 1988